وجوب حقّ الوالدين
أوّل ما كتب الله تعالى في التوراة

إعداد: «شعائر»

من مؤلّفات المحقّق الكراجكي (الشيخ أبو الفتح محمّد بن عليّ المتوفى سنة ٤٤٩ هجرية) رسالة في حقّ الوالدين عبارة عن وصية خاطب بها ولده. قال العلامة الطهراني في (الذريعة: ج٤ ص ٢١٦): «كرّاسة واحدة كتبها وصيّة إلى ولده، أوّله: الحمد لله على ما منح من عقل، ووهب من فضل "..". رأيت منه نسخاً عديدة في النجف الأشرف». وهذا نصّها:

"..." اِعلم أيّها الولد الحبيب «..» أنّ الله خلقك منّي بقدرته، وجعلني سبباً لتكوّنك بمشيئته، فأنت إليّ منسوب، وبي معروف ومنعوت، أنا وأمّك التي أنشأك الله في أحشائها، وغذّاك بلبنها، وربّاك في حجرها، لم نزل - بلطف الله تعالى لك - عطوفين عليك، رؤوفين بك، نحرسك بجهدنا من الأذى، وندفع عنك ما نستطيع دفعه من الردى، ونقيك بأنفسنا، ونغذّيك بمهجنا، تنام وأعيننا ساهرة، وتسكن وحركاتنا دائمة، نستقلّ لكن (لك) بذلك الجهد، ونشتغل بك عن كلّ فرض، إنْ تألّمَ أحد أطرافك حلّ ذلك الألم قلوبنا، وإن تكاملت لك الصحّة، لم يزل (قلقنا عليك وخوفنا)، فحقّنا عليك واجب لا يبطل، وفرضنا لك لازم لا يعطّل، وإحساننا لك لا يقابل بشكر، وإكرامنا لك لا يكافأ ببرّ.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**لا يجزي ولدٌ عن والده إلّا أن يجده مملوكاً فيشتريه ويعتقه**». وفي خبر آخر: «**إنّ كلّ أعمال البرّ يبلغ منها الذروة العليا، إلّا حقّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وحقّ والديه**».

وقد ارتفعتَ بجميل التربية عن درجة الأصاغر، وألحقَك حميدُ النشوء بمنزلة الأكابر، وبالغتُ في تأديبك، وحسنِ تقويمك وتهذيبك، وإنّي لمّا خفتُ عليك عثرة قدم الشبيبة في حقّ والديك، وزلّة الدالّة عليهما بتضييع فرضهما عليك، حيث تكسب ذمّ العاجلة، وتعتقب عذاب الآجلة، رأيت أن أنبّهك على واجب حقّهما، وأعرّفك لازم فرضهما.

فقد قال رسول الله ﷺ: «**ما نحَلَ والدٌ ولدَه نِحلةً أفضل من أدبٍ حسنٍ يُفيده إيّاه، وجهل قبيح يردّ منه وينهاه**». "..." اِعلم يا ولدي، أنّ الله جلّ جلاله علم حاجتك إلى أبوَيك فجعل لك عندهما منزلة تغنيك عن وصيّتهما بك، وعلم غناهما عنك فأكّد وصيّتك بهما. «..»

فاعرف وفّقك الله الفرق بين هاتين الرتبتين، وميّز بعقلك بين المنزلتين؛ تعرف وجوب حقّ الوالدين.

ثمّ عد إلى بديهة عقلك الشاهدة لديك، بوجوب شكر المنعم عليك وانظر، هل أحد من البشر أكثر نعمة عليك من أبيك وأمّك؟! وأولى منهما بشكرك وبرّك؟!

واعلم أنّ الشكر ليس هو مجرّد الاعتراف بالنعمة، وإنّما هو الاعتراف بها مع التعظيم لمولاها، فإن استجَزتَ تضييع حقّهما، وسامحت نفسك في الإخلال بواجبهما، فهل ترضى من ولدك أن يقابلك بمثلها لك؟!

أما بلغك قول رسول الله ﷺ: «**برّوا آباءَكم تبرّكم أبناؤكم، وعفّوا تعفّ نساؤكم**»؟! أتلُ يا بنيّ ما علّمك الله تعالى من آياته، وتأمّل مضمون تبيانه، إنّ الله سبحانه وتعالى قد قرن الوالدين بنفسه، وأتبع ذكرهما بذكره، وجعل شكرهما

تابعاً لشكره. فقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ لقمان:١٤.

ثمّ أمرك بالرأفة لهما، والتحنّن عليهما، والتذلّل لهما، وأخبرك أنّه قضى بذلك في سابق كلامه، وأوجبه في مقتضى حكمه، وجعله مقروناً بتوحيده، ومضافاً إلى عبادته، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ الإسراء:٢٣-٢٤.

وقد فهم ذو البصيرة والمعرفة باللغة العربية من فحوى قوله سبحانه: ﴿..فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ..﴾ أنّه زجر بذلك عن كلّ قبيح زاد على الأفّ، وأنّه لو علم سبحانه قبيحاً يكون أقلّ من هذه اللفظة لكان هو المذكور في النهي «..»

وقد روي أنّ الإمام الصادق عليه السلام، سئل عن هذه الآية، فقيل [له]:

«ما هذا الإحسان في قوله تعالى: ﴿..وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا..﴾؟

فقال: **هو أن تُحسنَ صحبتَهما، ولا تكلّفهما أن يسألاك ممّا يحتاجان إليه شيئاً وإن كانا مستغنيَين، أليس الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ..﴾ آل عمران:٩٢؟!**

قيل له: فقوله تعالى: ﴿..إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾؟

قال: **إن ضرباك.**

ثمّ قال عليه السلام: **لو علم الله تعالى شيئاً أدنى من أفٍّ لنهى عنه، وأدنى العقوق أن ينظر الرجلُ إلى والدَيه فيحدّ النظرَ إليهما.**

قيل: فقوله تعالى: ﴿..وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾؟

قال: **يقول: غفر اللهُ لكما، فذلك قول كريم.**

قيل: فقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ..﴾؟

فقال: **لا تملأْ عينَك من النظر إليهما إلّا برحمةٍ ورقّةٍ، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، ولا يدك فوق أيديهما، ولا تتقدّم قدّامهما، وقلْ: ﴿..وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾».**

ولو لم يرِد من القرآن من الوصيّة بالوالدين غير هذه الآية، لكان فيها كفاية للعاقل، وإيقاظ للغافل، فكيف وقد أردف الوصيّات بهما تشديداً وقرَن وجوب الإحسان إليهما بوجوب عبادته تأكيداً.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا..﴾ البقرة:٨٣.

وقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا..﴾ النساء:٣٦.

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا..﴾ العنكبوت:٨.

وأكّد الأمر، وضاعف الفرض، بأن عطف ما أوجبه من الإنسان إليهما على ما أوجب تحريمه من الشرك به، الذي هو أعظم المعاصي، وأكبر الكبائر، ولا يرجى لصاحبه مغفرة من غير توبة، وبيّن أنّه تعبّد به الأمم السالفة، وأنزله في كتبه الماضية.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا..﴾ الأنعام:١٥١.

وقيل: إنّه هو أوّل ما كتب الله تعالى في التوراة. وليس هو من العبادات التي يجوز نسخها، ويسوغ ورود السمع بضدّها؛ لأنه موجبات العقل، وكلّ ما أوجبه العقل فهو على هذا السبيل. فاعرف وجوب هذا الفرض، وشهادة الأدلّة بلزومه لك من العقل والسمع. «..»